ستارنو : لك في الامر رأيك

بياترو : هل تحسن القراءة او الكتابة

ستارنو : كلّا لم ادرس على معلم ولم ادخل مدرسة

بياترو لذاته : هذا ما كنت ارغبه . فقد تحقّق لي الامل

لستارنو : صحبتك السلامة

ستارنو : الى اللقاء سيدي (يخرج من الملهى)

المشهد الثالث عشر

بياترو لذاته

بياترو لذاته : هل انا في مأمن من شرّه؟ لقد اسرعتُ وتمنّتُ بسرّي لهذا الرجل . ما العمل لو اطّلع احدٌ على الرسالة . غير ان الجميع الان غارقون بسُبات عميق . ومن جهة اخرى انها بالرجل الثقة . . . ولكنهُ اص أوتصدّقُ طريّتهُ او تسلمُ نيّتهُ ؟ فالاحسن ان ارسلها الى مدخل الكهف فيطمئن الي (يخرج من الملعب ويرخي الستار)

(لها بقية)

الآداب العربيّة

في الربع الاول من القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الحقبة الثانية من القرن العشرين (١٩٠٨—١٩١٨)

استدراك

فاتنا ان نذكر بين المتوفّين من نصارى الشام في هذه الحقبة الثانية بعض الادباء المعدودين فها نحن نخصّ بهم الاسطر الآتية :

توفي قبل الحرب الكونيَّة في ٢٧ شباط ١٩١٢ في دار مطرانيَّة الروم الارثوذكس في زحلة الاستاذ الدمشقي ﴿ جرجس مرقس ﴾ رحل الى روسيَّة فحلَّ في عاصمتها موسكو ضيفاً كريماً . فعرفت الدولة فضلهُ وانتدبتهُ الى تعليم اللغات الشرقيَّة في جامعتها فلبَّى طلبتها واصاب هناك سمعةً طيِّبة وثبت في منصبهِ ٢٥ سنة ونشر في مجلَّات روسيَّة مقالات عديدة في الامور الكنائسيَّة الشرقيَّة وخدم الكنيسة الاورثذكسيَّة باكسة اخويَّة القبر المقدَّس اليونانيَّة وكان ساعياً في نشر رحلة البطريرك مكاريوس زعيم الحلبيّ الى روسيَّة . وقد اثابتهُ الدولة الروسيَّة بمنحهِ رتبة جنرال مع عدَّة اوسمة شرفيَّة

وفي الشهر التابع لدخول تركيا في الحرب في ٢٧ ك١ سنة ١٩١٤ فقد الوطن احد رجالهِ المعدودين ﴿ تامر بك ملاط ﴾ ولد سنة ١٨٥٦ في بعبدا وتلقَّى العلوم في مدرسة مار عبدا هرهريا الاكليريكيَّة فأتقن علومها الدينيَّة والادبية حتى اللاهوت استعدادًا لقبول الدرجة الكهنوتيَّة وتعلم اللغة السريانية فبرع فيها . ثمَّ عدل عن الكهنوت الى التعليم في مدارس لبنان وبعد مدَّة انتظم في سلك اساتذة مدرسة الحكمة في بيروت وعكف على درس الفقه فانتدبتهُ الحكومة اللبنانيَّة الى خدمتها فخدمها في عدَّة وظائف في محاكم كسروان وزحلة والشوف في عهد متصرفي لبنان واصا باشا ونعُّوم ومظفر الى ان اعتزل الاشغال وأُصيب بمرض طويل انتهى بوفاتهِ . وكان تامر بك كاتباً مجيداً وشاعراً مطبوعاً نشر شقيقهُ شبلي بك ديوانهُ سنة ١٩٢٥ فقدَّمهُ على ديوانه الخاصّ . وفيهِ عدَّة قصائد تشهد لهُ بجودة القريحة . وقد استحسنَّا لهُ قولهُ في الزهد :

واللبيبُ اللبيب من خاف يوماً ... واتقى الله في جميل الفعال
واتحى توبةً اذا زلَّ يرجو ... في زوال الحياةِ حسن المآل

وفي معظم جلبة الحرب العموميَّة ودَّع الحياة احد وجوه نصارى بيروت الطيِّب الذكر ﴿ المركيز ، وسي دي فريج ﴾ توفاهُ الله في ١٧ ايَّار ١٩١٦ . درس في مدرسة اليسوعيين في غزير اللغات ومبادئ العلوم ثمَّ تعاطى التجارة وحصل على ثروة واسعة وكان من انصار الآداب والعلم مع تأصلهِ في روح الدين . عدَّتهُ الجمعية العلميَّة السوريَّة المنشأة في اواسط القرن التاسع كاحد اركانها . لهُ في نشرتها المطبوعة خطب وقصائد ومقالات ادبية

وفي العام التالي في ٨ تشرين الاوّل ١٩١٧ خسر العراق احد كهنته الافاضل المعروفين بنشاطهم في خدمة التاريخ والعلوم الدينية ﴿ القس بطرس نصري الكلداني ﴾ الذي سبقت ترجمتهُ في المشرق (٢١ [١٩٢٣] : ٦٥٧ ـ ٦٦٠) كان مولدهُ في الموصل سنة ١٨٦١ وتخرّج تحت نظارة ارباب طائفته ثم في مدرسة افنشار الايمان في رومية . ولما رجع الى الموصل تخصّص بخير مواطنيه بكلّ الخدم الكهنوتية ولاسيما بالتعليم والتأليف فدرّس العلوم الدينيّة العليا في المدرسة البطريركيّة الاكليريكيّة وصنّف كتباً عديدة في اللاهوت والفلسفة والتاريخ تجد جدولها في آخر ترجمته

وممّن كان حقّهم ان يُذكَروا في هذه الحقبة الثانية من القرن العشرين فذكرناهم سابقاً في عداد ذوي القرن التاسع عشر ﴿ المعلّم سعد العفيسي ﴾ نشر سنة ١٨٧٢ ديواناً مدح فيهِ اعيان ذلك الزمان وذكر حوادثهُ فنقلنا قطعاً عنهُ في الطبعة الاولى من الآداب العربية في القرن التاسع عشر (ص ٥٠ ـ ٥١) وقد عاش زمناً طويلاً حتى بلغ العشر الثاني من القرن العشرين

القسم الثالث

الآداب العربية من السنة ١٩١٨ الى ١٩٢٦

البحث الاول

نظر عامّ في الآداب العربية بعد الحرب الكونية

كان وداعنا للحقبة الثانية من الربع الاوّل من القرن العشرين وداعاً مبلولاً بدموع الحزن والكآبة بعد ان افتتحناها بالسرور والبهجة . كيف لا وقد حلّت تلك الداهية الدهياء اي الحرب الكونية التي كانت اشبه بصاعقة هائلة دوت في جوّ صافٍ لا

يحسب حسابها منتظر . على انَّ الصواعق اذا أرعدت وأرعبت وتفجّرت لا تلبث ان تهدأ زمجرتها ويسكت هزيم رعدها وتنكشف سحب سمائها المتلبدة . وهكذا كان امل الشعوب يتكهَّنون بقصر مدة الحرب مع ما لدى الدول من الاسلحة الحديثة التي من شأنها ان تجلب دمارًا واسعاً باسرع وقت . وما أخيب ما كان ذاك الامل فطالت الحرب ونشرت الهلاك في معظم اصقاع المعمور ولم ينجُ من اضرارها ذات البلاد التي لم تَخُض عبابها فأصيبت برجع صداها المولة

وما عسى ان يكون مع اهوال الحرب سهم الآداب . وهل يُسمع صرير الاقلام عند صلصلة السيوف او يُصغى الى صوت البلغاء مع دويّ المدافع حين يكون «السيف اصدق انباء من الكتب»

فان كانت الحرب اصابت ببلاياها انحاء المعمور فهل كان من امل ان تنجو من تيارها الآداب عموماً والآداب العربية خصوصاً وهي مع سَعَتها لم تبلغ مبلغ الآداب الاوربية التي بكت على ألوف من نوابغ علمائها وأصيبت ايضاً بمصاب أليم

وقد تراكمت ويلات الحرب على البلاد الناطقة بالضاد لاسيما الواقعة تحت حكم الدولة العثمانية من جزيرة العرب الى حدود القفقاز ومن بحر الشام الى العجم . فأُقفلت معظم المطابع وأُوقفت المجلات وأُلغيت الجرائد إلَّا ما ندر منها وكان اصحابها مستعبدين لتركية . وقُتل او نُفي كثيرون من الادباء

على انَّ هذه الحالة الحرجة لم تقتل الآداب العربية تماماً وقد ذكرت مجلة المشرق (١٨ [١٩٢٠] : ٤٨١ــ٤٨٦) مطبوعات قليلة صدرت في ايام الحرب اخصُّها كتاب لبنان الذي عُنينا بنشره مع بعض اهل العلم الاختصاصيين (المشرق ١٨ : ٧٣ــ٧٤) . ونشر في دمشق جناب السيد كرد علي في مجلة المقتبس آثارًا عربية قديمة وكذلك الشيخ عبد القادر بدران نشر جزءين من تاريخ دمشق لابن عساكر

اما مصر فلم تخمد فيها الحركة الفكريَّة في تلك السنين الصعبة فاستفادت الاداب العربية ممَّا نُشر فيها من التآليف الجليلة القديمة كصبح الاعشى للقلقشندي في عدَّة اجزاء والخصائص لابن جنّي وديوان ابن الدُّمَيْنَة والمكافأة لابن الداية والاعتصام للشاطبيّ وكتاب الاصنام لابن الكلبي . ولدار الكتب الخديويَّة في هذه المطبوعات

فضلٌ كبير . ونشر ادباء الاقباط خطباً وميامر بيعيَّة لابن العسال ولابن البركات ابن كبر

ومن التآليف المستحدثة المنشورة في ذلك الوقت تاريخ سينا القديم والحديث لنعوم بك شقير وديوان حليم حلمي المصري وكتاب سياحتي الى الحجاز وتاريخ الآداب العربية لاحد اخوة المدارس المسيحية وكتب أُخرى وقفنا عليها فوصفناها في مقالتنا «الاداب العربية منذ نشوب الحرب العمومية» وذكرنا ايضاً هنالك بعض المطبوعات الشرقية التي تولى نشرها المستشرقون (راجع المشرق ١٨ [١٩٢٠]: ٤٨٧ــ٤٩٤)

وفي خريف السنة ١٩١٨ انقشعت عن ساحات الحرب تلك الظلمات بانتصار الدول المتحالفة فأتى وقت الاصلاح وليس الاصلاح كالخراب فانَّهُ لا يتمُّ إلَّا بزمن طويل ونفقات باهظة ورجال ذوي همة قعساء

على انَّ دولتي فرنسة وانكلترا اللتين فُوِّض اليهما الانتداب على البلاد العربية لم تضنَّا باموالهما وتنشيطهما على الاهلين ليسدُّوا تلك الثلمة الواسعة ويردُّوا للبلاد شرفها السابق . وكان كثيرون من الناشئة قد صدأت اقلامهم وفشلت قواهم لكسود سوق الآداب فنهضوا بهمَّة جديدة لخدمة مواطنيهم فمنهم من تولى التدريس في المدارس العمومية ومنهم من فتح المطابع الجديدة وانشأ المجلَّات والجرائد حتى بلغت بعد حين عدداً لم تبلغهُ في الازمنة السابقة للحرب ويا ليتها كلُّها كانت صادقة الخدمة معتدلة اللهجة متقنة للكتابة

وكان اوَّل من استأنف العمل لخدمة العلوم والآداب اصحاب المطبعة الكاثوليكية التي كان الاتراك مع حالفيهم الالمان ضربوها ضربةً كادت تكون قاضيةً عليها فنُقلت ادواتها الى دمشق ولبنان ونُهبت حروفها ونقوشها وورقها وكتبها بل نُزعت حجارة ارضها فقضي على اصحابها ان يصرفوا اشهرًا طويلة ومبالغ وافرة ليتداركوا ذلك الخلل ويعودوا الى نشر مطبوعاتهم المشهود لها بألسن الوطنيين والاجانب .

فهذه ثماني سنوات منذ منَّ الله بالفرج على عباده وانقذنا من تلك النكبة الهائلة التي حوَّلت الارض الى منقع من الدم . فيحسن بنا ان نسرح النظر في احوال آدابنا

العربية لترى ما افضت اليه امورها من ترقٍّ مرغوب او تقهقر مرهوب لاسيما في الشرق الادنى محور الشعوب الناطقة بالضاد

وما لا يُنكر انَّ هذه البلاد قد حصلت في هذه الحقبة الثالثة على حرّية لم تعهدها سابقاً في زمن الاتراك فانَّ الدولة الافرنسيَّة والانكليزية اطلقتا الحرّية التامة للطباعة ولم تذخرا وسعاً في تنشيط الآداب والعلوم لم تستثنيا من ذلك سوى بعض الكتابات السياسيَّة المتطرّفة دفعاً لاضرارها . ولو لم تحصل عاصمتنا بيروت من فضل فرنسة على غير مكتبتها العمومية وهي اوَّل مكتبة من جنسها لوجب علينا شكرها

فاذا نتج لخدمة الآداب العربية من الفوائد بعد الحصول على هذه الحرية مع كثرة الكتبة المتخرّجين في المدارس ؟ فاين الجمعيات الادبية الراقية ؟ واين الشركات المؤلفة لتنشيط الاداب ولطبع التآليف الممتازة ولمجازاة اصحابها ؟ واين المصنَّفات التي تباري المصنَّفات الاوربية صورةً ومعنًى لترجع اليها في العلوم العصريَّة فتغنينا عن الالتجاء الى اللغات الاجنبية ؟

وكم نرى في المنشورات فصولاً تساوي بالاذهاب ، يتهافت اصحابها بالقائها ونحن مدوّنون لها بالاعجاب في سائر امورنا من مشاريع عمومية وخصوصية واعمال كلها يعود انشؤها الى همتهم . وان قصرنا النظر على لغتنا فاننا لا نرى فيها من ادبي ما كان يؤمَّل من الزاولين لها المجتهدين في تعزيزها

وكان معظم ما يصرفهُ الكتبة من القوى في ذلك يبرز في المجلّات والجرائد . فاما الجرائد فلتسرُّع الكتبة في انشائها قلَّما تصلح لان تُتَّخذ مثالاً وقدوةً للفصيح بليغة راقية اللهم إلاَّ القليل الزهيد منها وذلك في بعض فصولها المحرَّرة بعد نضج الفكر واختمار الذهن

واما المجلّات فكثيراً ما تأخذ موادّها عن المنشورات الاوربية فيُشتمُّ منها رائحة الغرابة ويُستشفّ من وراء كتاباتها لوائح أصلها الاجنبيّ ما خلا البعض منها التي لا تتجاوز عدد الانامل

اما المطبوعات المنفردة فانَّ التسعين في المئة منها روايات يغلب عليها الغرام معرَّبة عن الروايات الاوربية القليلة الجدوى الشائنة للاداب . وقد راقنا منها بعض روايات اخلاقية وصف فيها أصحابها العادات المألوفة بين العامَّة لاسيما في مصر

اما الكتب الادبية فكان للدين منها قسمة الضالع فأبرز المرسلون والرهبان الوطنيون والكهنة العالمون تآليف حسنة منها لاهوتية وفلسفية ومنها روحية وزهدية ومنها تراجم ابرار وصالحين وقد وصفنا في كل اعداد المشرق منذ السنة ١٩٢٠ هذه المطبوعات وبيّنّا فضلها

ومما نُشر ايضاً كتب تهذيبية ومدرسية وانشائية وشعرية لإفادة الاحداث في المدارس الوطنية ومطالعة الجمهور . والخلل في كثير منها ظاهر

ونُشرت ايضاً عدّة كتب تاريخية واجتماعية وسياحات ليس بينها إلّا القليل مما لم يُنقل عن التواريخ الاجنبية كتواريخ الحرب الكونية وتواريخ بعض البلدان وكبار الرجال

وقد ظهرت في مصر بعض الآثار المطمورة في زوايا النسيان كتاريخ النويري «نهاية الارب في فنون الادب» وكتاب «التاج للجاحظ» و«زهرة الآداب للحصري» المطبوع سابقاً على هامش العقد الفريد و«مسالك الابصار في ممالك الامصار لابن فضل الله العمري» و«ديوان مهيار الديلمي»

ولم يبعد المستشرقون عن فضلهم السابق في نشر الآثار الشرقية واتقانهم لطبعها وتزيينها بكل المعلومات المفيدة والفهارس الواسعة . فمما صدر منها في مطبعتنا الكاثوليكية نقائض الاخطل وجرير وشرح ديوان المفضّليات للضبّي وديواني عمرو بن كلثوم والحارث بن الحلزة وكتاب المأثور لابي العميثل

وظهرت في جهات اوربّة من آثار اجدادهم كتاب الوزراء والكتّاب الجهشياري وكتاب صورة الارض لابي جعفر محمد بن موسى وديوان ابي ذؤيب . وشرح ديواني علقمة الفحل وعروة ابن الورد للاشنتمري واقسام جديدة من النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة لابن تغري بردي ومن معجم الادباء لياقوت وغير ذلك مما يجعل للاوربيين قصبة السباق في نشر الآثار العربية

ومما امتازت به هذه الحقبة الاخيرة سعي بعض الكتبة الى انتقاد المطبوعات النثرية والشعرية كمحمد عباس العقّاد وكزكي مبارك وزكي ابي شادي وحسن صالح الجداوي والاب انستاس الكرملي وقسطاكي حمصي . . وانّا نودّ ان يكون هذا الانتقاد برواق وهدوء اظهاراً للحق لا تشفّياً من خصم او تحقيراً لاديب

ومن خصائص هذه الحقبة ايضاً اتساع فنّ الكتابة بين الاوانس وربّات الخدور فمنهنّ من يتصدّر للخطابة ويلقين المحاضرات او من ينشئن المجلّات وينشرن فصولاً في الجرائد والبعض منهنّ يتظمن القصائد اللطيفة الرائقة لاسيما في الامور الخاصّة بالنساء وتدبير البيوت.

فهذه الامتيازات جعلت لحقبتنا الحاضرة مقاماً حسناً إلّا اننا وجدنا ايضاً فيها ما يدعونا الى [illegible] من تقهقر لغتنا وانحطاطها فنلفت اليها حكماء قومنا

واوّل آفة على لغتنا الإكثار من الدخيل لاسيما اذا لم يُكسَ صورةً يأنس بها اللسان العربيّ . نعم لا تخلو اللغة العربية من الالفاظ الدخيلة حتى انّ القرآن العربي نطق بها وانّما كان العرب يقرّبونها الى لغتهم ببعض التصرّف في صورتها فيزول شيء من غرابتها وخشونتها

وكذلك التعابير الاجنبيّة زاد استعمالها لشيوع لغات الاجانب بيننا ولوفرة المترجمات عنها

وكما انّ تلك اللغات في العربية الفصحى كذلك اللهجات العامية اخذت تسطو على اللغة البليغة فتميع صورتها السهلة . ومن العجب انّ بعض المثقفين من اخصائنا ينشرون مقالات لترويج اللغات العامية زعموا انّ تلك اللهجات اقرب الى فهم الجمهور وأدعى الى نشر العلوم العصريّة وهو فكرٌ غريب لا يخطر لاحد من العقلاء على بال وقد سبق لنا في ذلك مقال طويل بيّنا فيه العواقب السيّئة التي تحصل بذلك فتطمس جمال لغة اجدادنا وتبسط الفوضى بين الكتّاب وتبثّ بين البلاد العربية روح النفور والاستبداد اذ لم يبق بيننا وبينها رابط يجمعنا لما في كل لهجة من الاختلاف والتباين

واخذ غيرهم يتصرّفون ايضاً بالبحور الشعرية تصرّفاً زائداً نزع عنها رونقها ومسحة جمالها وكادت تشبه النثر كما فعل اصحاب النثر الشعريّ فجاءت كتاباتهم لا تُعدّ نثراً ولا شعراً ليس لها من العربية الا الفاظها وكثرتها دون لبابها وجوهرها

(لها بقية)